صفات عباد الرحمن

١ ــ التواضع

● الخطبة الأولى:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خصّنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بخير نبيّ أرسل، وجعلنا بالإسلام خير أمّة أخرجت للناس، نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ونؤمن بالله، وأتمّ علينا النعمة بأعظم دين شرعه الله لعباده: دين الإسلام ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا . . .﴾ [المائـــدة: ٣] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران: ٨٥].

وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، أدّى الأمانة، وبلّغ الرسالة، ونصح للأمّة، وجاهد في الله حقّ جهاده، وتركنا على المحجّة البيضاء، على الطريقة الواضحة الغرّاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلاّ هالك، فمن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً، اللهم صلّ وسلّم وبارك على هذا النبي الكريم، وعلى آله وصحابته، وأحينا اللهم على سنّته، وأمتنا على ملّته، واحشرنا في زمرته، مع الذين أنعمت عليهم من النبيين والصّدّيقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقاً.

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

يقول الله تبارك وتعالى في كتابه وهو أصدق القائلين:

﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٧٦] صدق الله العظيم.

هذه لوحة قرآنية رُسمت فيها شخصيّة (عباد الرحمن)، وضّح الله فيها المعالم والتقاسيم لهذه الفئة المختارة من الناس، جعلهم الله نموذجاً يُحتذى، وأسوة بها يُقتدى.

عباد الرحمن: هم العباد المنسوبون إلى الله وحده، إذا كان هناك عباد للشيطان أو للطاغوت أو للشهوات أو للدينار والدرهم «تعس عبد الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة ـ زاد في رواية «وعبد القطيفة» ـ إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش..»[1]، إذا

---

(١) جزء من حديث رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، و«القطيفة»: كساء له خمل يُجعل دثاراً، «والخميصة»: ثوب مُعلّم من خزّ أو صوف، و«انتكس»: أي انقلب على رأسه خيبة وخساراً، و«شيك»: أي دخلت في جسمه شوكة، و«الانتقاش»: نزعها بالمنقاش، وهذا مثل معناه: إذا أصيب فلا انجبر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٣٦٨ ـ ٣٦٩، الحديث ٦٥٨).

كان هناك عبيد الكاس والطاس، إذا كان هناك عبيد المسكرات والمخدّرات، إذا كان هناك عبيد المرأة والغريزة، فإنّ هناك (عباداً للرحمن).

هؤلاء العباد الذين أيس الشيطان نفسه أن يتسلّل إليهم، أو يجد منفذاً لإغرائهم والسيطرة عليهم ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣] . وقال عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٥] .

هؤلاء هم العباد المنسوبون إلى ذات الله تعالى المقدّسة: عباد الرحمن، وقد رضي الله أن ينسبهم إلى ذاته باسم (الرحمن) الذي يشعر بأنّهم أهل لرحمة الله عزّ وجلّ، وأنّهم في دائرة هذه الرحمة، وأنّ الرحمة تحيطهم عن يمين وعن شمال، ومن فوقهم ومن تحت أرجلهم، فهم عباد الرحمن.

وقبل ذلك ـ في هذه السورة ـ قال الله تعالى عن المشركين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٦٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٠] فإذا كان هؤلاء يجهلون: ما الرحمن، فإنّ هناك أناساً يعرفون الرحمن، ويَقدُرونه حقّ قدره، ويؤدّون له حقّه، وهم عباده المخلِصُون والمخلَصُون، أخلصوا دينهم لله، وأخلصهم الله لدينه.

أتريد أن تكون من عباد الرحمن؟ أتريد أن تنتسب إلى الله عزّ وجلّ؟ أتريد أن تكون واحداً من هؤلاء؟ أتريد أن تكون عضواً في هذه الجماعة؟ وأن تكون عبداً من عباد الرحمن وحده؟ إذن فاعرف مقوّماتهم وخصائصهم وصفاتهم، اعرف من هم (عباد الرحمن) حتى تجتهد أن تكون واحداً منهم، فالمسألة ليست بالكلام، القضيّة ليست دعوى، فما أكثر الدعوى وما أعزّ المعنى.

ما أكثر من يقول: أنا من عباد الرحمن، ولكن أفعاله تنطق وتدلّ عليه وتقول له: أنت من عباد الشيطان ولست من عباد الرحمن.

عباد الرحمن لهم خصال وصفات وسمات، ذكرها الله في هذه الآيات، وما أجدرنا أن نعيش في رحاب هذه الآيات جُمعاً وجُمعاً.

أوّل سمات عباد الرحمن: أنّهم يمشون على الأرض هوناً. انظروا كيف بدأ الله أوصاف عباد الرحمن بهذه الصفة: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان ٦٣]، أللمشي هذا الاعتبار كلّه؟! كيفيّة المشي، صفة المشي، لها قيمة عند الله؟!.

نعم، لأنّها تعبرّ عن الشخصيّة، تعبّر عمّا يستكنّ فيها من مشاعر وأخلاق، فالمتكبرون الجبارون لهم مشية، والمؤمنون المتواضعون لهم مشية، كلٌّ يمشي معبّراً عمّا في ذاته.

عباد الرحمن يمشون على الأرض هوناً، يمشون متواضعين هيّنين ليّنين، يمشون بسكينة ووقار، بلا تجبّر ولا استكبار، لا يستعلون على أحد، لا ينتفشون ولا ينتفخون، لا يمشي أحدهم، وكأنّه يقول: يا أرض انهدّي وما عليك قدّي. لا، إنّه يمشي مشية من يعلم أنّه من الأرض خرج وإلى الأرض يعود ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه: ٥٥].

وفي وصايا الله ـ الوصايا الحكيمة في سورة الإسراء، كان النّهي عن مشي المرح والأشر والبطر والاختيال والفخر إحدى هذه الوصايا: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الإسراء: ٣٧].

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ﴾: مهما دببت برجليك، ﴿وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾: مهما تطاولت بعنقك، وشمخت برأسك، فامش إذن متواضعاً حتى يحبّك الله، وحتى يحبّك النّاس، فالله لا يحبّ المختال الفخور، ولهذا نجد القرآن في آية ثالثة يحكي لنا عن وصيّة لقمان لابنه وهو يعظه، فكان من وصاياه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ [لقمان: ١٨ ـ ١٩].

﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾: لا تكلّم النّاس وأنت معرض عنهم، مشيح عنهم بوجهك، ولا تجعلهم يكلّمونك وأنت معرض عنهم، بل أقبل عليهم، وكلّمهم ووجهك منبسط إليهم.

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾: المختال الذي

يظهر أثر الكِبْر في أفعاله، والفخور الذي يظهر أثر الكبر في أقواله، فهو يقول: أنا فلان، وابن فلان، ومن أسرة فلان.

والله لا يحبّ المختال ولا يحبّ الفخور، إنّما يحبّ الله المتواضع الذي يعرف قدر نفسه، ولا يحتقر أحداً من النّاس.

﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾: ليس معنى مشي الهَوْن أنّهم يمشون متماوتين متمارضين، كما يفعل بعض من ينتسب إلى التقوى والصلاح، فهو يتماوت ويتصنّع، لا، ما كان هكذا رسول الله ﷺ، ولا كان أصحابه.

كان النّبي ﷺ ـ كما روى عنه علي بن أبي طالب ـ إذا مشى تكفّأ تكفؤاً كأنّما ينحطّ من صبب[1] وهي مشية أولي العزم والهمّة والشجاعة، كما قال ابن القيّم رحمه الله[2]. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: ما رأيت شيئاً أحسن من رسول الله ﷺ، كأنّ الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحداً أسرع في مشيته من رسول الله ﷺ، كأنّما الأرض تُطوى له، وإنّا لنجهد أنفسنا وإنّه لغير مكترث[3].

هكذا، لم يكن ﷺ متماوتاً ولا بطيئاً، وليس معنى (السرعة) هنا: السرعة التي تذهب بالوقار، بل الوسط، لا بالسريع المفْرط، ولا بالبطيء المفْرط. هذا هو مشي المؤمنين، مشيث فيه قوّة، وفيه ـ في نفس الوقت ـ تواضع.

وهكذا كان عمر رضي الله عنه، رأى شاباً يتماوت في مشيته، فقال: أأنت مريض؟ قال: ما أنا بمريض، قال: إذاً فلا تمشي هكذا، وعلاه بدرّته.

أمره أن يمشي مشي الأقوياء المتواضعين.

---

(١) أي: كأنّه ينزل من مرتفع إلى منحدر.

(٢) في كتابه القيّم: (زاد المعاد في هدى خير العباد).

(٣) يراجع فصل: (في هديه ﷺ في مشيه وحده ومع أصحابه) من كتاب (زاد المعاد للإمام ابن القيم: ١/ ١٦٧ ـ ١٦٩) بتحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط.

ورأت إحدى الصحابيات شباناً يمشون متهالكين متماوتين، فسألت عنهم: من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء نسّاك ـ عبّاد، قالت: والله لقد كان عمر إذا مشى أسرع، وإذا تكلّم أسمع، وإذا ضرب أوجع، وكان هو النّاسك حقاً!

كلّ أفعاله تدلّ على القوة، ليس بالمتماوت.

فليس معنى المشي الهون أنّهم يمشون متماوتين، لا، ما يريد الإسلام هذا الإنسان المتماوت المتمارض.

رأى عمر بعض النّاس يتخشّع في صلاته ويتصنّع ويطأطىء رقبته، فعلاه بالدّرّة وقال: يا هذا، أرفع رأسك، لا تمت علينا ديننا أماتك الله، إنّ الخشوع في القلوب ليس الخشوع في الرقاب!

فهذا هو ما نريده بالمشي الهون.

﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾: أي يمشون ليّنين متواضعين مع القوة أيضاً، والسرعة المتوسّطة على حسب مقدرتهم وسنّهم واستطاعتهم.

التحذير كلّه أن يمشي الإنسان في الأرض مرحاً، وأن يمشي الإنسان في الأرض مختالاً، قد حذّر النبي ﷺ من ذلك أشدّ التحذير وقال: «من تعظّم في نفسه أو اختال في مشيته، لقي الله تبارك وتعالى وهو عليه غضبان»[1]. وقال: «بينما رجل ـ ممّن كان قبلكم ـ يتبختر يمشي في بُرديه، قد أعجبته نفسه،

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن ابن عمر بهذا اللفظ، وصحّحه الشيخ شاكر برقم (٥٩٩٥)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح (١/ ٩٨)، كما رواه الطبراني في الكبير، ورواته محتجّ بهم في الصحيح كما قال المنذري، وكذا رواه الحاكم بنحوه وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (١/ ٦٠)، ونسبه في الجامع الصغير إلى أحمد والبخاري في الأدب المفرد ورمز لحسنه (٢/ ١٦٩)، قال المناوي في الفيض: وهو كما قال أو أعلى (٦/ ١٠٦ برقم ٨٥٩٨)، وانظر: (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب للقرضاوي: ٢/ ٧٥٩ ـ ٧٦٠ برقم ١٧٦٦).

فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة»[1]، يمشي متبختراً في بُرديه، معجباً بنفسه، شامخاً بأنفه، ثانياً لعطفه، مصعّراً لخدّه، فخسف الله به الأرض، كما خسف بقارون حينما خرج على قومه في زينته، مختالاً مفتخراً، فخسف الله ﴿... بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١].

علام إذاً يستكبر النّاس؟ علام يتجبّرون؟ علام يستعلون على غيرهم؟ لو نظروا إلى أنفسهم لوجدوا ـ كما قال الإمام الغزالي ـ أنّ أباهم الماء المهين وجدّهم التراب، وكما قال تعالى: ﴿... وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة: ٧ ـ ٨].

رأى مطرّف بن عبد الله بن الشخّير: المهلّب يمشي متبختراً، فغمزه ونهاه عن هذه المشية وقال: إنّ هذه مشية يبغضها الله عزّ وجلّ، وكان المهلّب قائداً من القوّاد الكبار فقال له: أما تعرفني؟ قال له: نعم، أعرفك وأعرف أوّلك وآخرك، أوّلك نطفة مذرة، وآخرك جيفة قذرة، وأنت فيما بين ذلك تحمل العذرة!

أوّلك نطفة.. ماء مهين، كما ورد عن بعض السلف: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرّتين كيف يتكبّر؟! لأنّه وهو نطفة خارج من أبيه جرى في مجرى البول، وهو أيضاً حينما وُلد جرى في مجرى البول، وقال الحسن: عجبت لمن يغسل الخُرء بيده مرّة أو مرّتين كلّ يوم كيف يتكبّر على جبّار السمٰوات.

لماذا يتكبّر الإنسان؟ علام يتكبّر؟ وعلام يختال؟ وعلام يفتخر على غيره ما دام أوّله نطفة وآخره جيفة؟! آخره الموت الذي يسوّي بين الكبير والحقير، والغنيّ والفقير، الكلّ ينتهي عند هذه الغاية، فعلام يتكبّر المتكبّرون؟

---

(١) رواه مسلم في كتاب (اللباس والزينة) عن أبي هريرة برقم (٢٠٨٨)، ونحوه في البخاري أيضاً في اللباس (البخاري مع الفتح: ٢٥٨/١٠)، وانظر: اللؤلؤ والمرجان (١٣٥١).

الأرض التي يمشي عليها الإنسان مرحاً، هذه الأرض تُرى ماذا وارت من الكبار؟ ماذا وارت من الأثرياء؟ ماذا وارت من الأمراء؟ ماذا وارت من الملوك؟

يقول الشاعر الصالح:

ولا تمش فوق الأرض إلاّ تواضعاً فكم تحتها قوم همو منك أرفع
وإن كنت في عزّ وجاه ومنعة فكم مات من قوم همو منك أمنع

أبو العلاء المعرّي له قصيدة رائعة يقول فيها:

صاح هذي قبورنا تملأ الرحب فأين القبور من عهد عاد؟!
خفّف الوطء، ما أظنّ أديم الأ رض إلاّ من هذه الأجساد
سر إن استطعت في الهواء رويداً لا اختيالاً على رفات العباد!
فقبيح بنا وإن قدم العهد هوان الآباء والأجداد!

ما يدريك لعلّ الأرض التي تمشي عليها مقبرة قديمة ذابت وبليت فيها عظام قوم كانوا من كبراء النّاس.

نحن على حداثة عهدنا رأينا مقابر واسعة فِي قطر فُتحت وامتلأت وأُغلقت، وفتحت أخرى وتمتلىء وتُغلق.

فأين قبور من كان قبلنا؟ من يدري أنّ الأرض التي نمشي عليها هي مقابر قديمة؟ من يدري لعلّ الأرض التي تختال عليها برجليك أو بسيّارتك تنهب الأرض نهباً، إنّما هي مقابر لعظماء من النّاس من قديم.

لا تمش في الأرض مرحاً، اعرف قدرك أيّها الإنسان، تواضع لله، فمن تواضع لله رفعه[1]، فهو في نفسه حقير وعند الناس كبير، ومن تكبّر وضعه الله، فهو في نفسه كبير وعند النّاس حقير.

---

(١) روى مسلم، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلاّ عزّاً، وما تواضع أحد لله إلاّ رفعه الله» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٧٥٥ برقم ١٧٥١).

إذا كان الإنسان يختال ويفتخر ويتعاظم ليكون عظيماً عند الناس، فالعكس هو الصحيح، إنّ هذا يحقّره عند الناس، ويجعله بغيضاً إلى النّاس كما هو بغيض إلى الله عزّ وجلّ.

ولهذا كان على الإنسان المؤمن أن يتواضع ـ وكما قالت عائشة رضي الله عنها: أفضل عبادةٍ للمؤمنين التواضع ـ كما كان رسول الله ﷺ أكثر النّاس تواضعاً، على ما له من مقام عند الله وعند النّاس، كان يمشي خلف أصحابه كواحد منهم، وكان يجلس بينهم لا يتميّز عليهم، حتى إنّ الرجل الغريب ليأتي فيقول: أيّكم محمّد؟ أيّكم ابن عبد المطّلب؟ لأنّه لا يتميزّ بشيء عن أصحابه، وكان في بيته يكون في مهنة أهله، يرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويحلب شاته، ويطحن مع الجارية والغلام، بيديه الكريمتين ﷺ.

على الإنسان المؤمن أن يتعلّم التواضع، وأن يمشي في الأرض هوناً، هذه أوّل صفات (عباد الرحمن).

التواضع يظهر أثره في المشي، وتزيد المرأة المسلمة في صفة المشي، أنّها تمشي على استحياء، كما وصف الله تلك المرأة ابنة الشيخ الكبير فقال: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [النور: ٣١].

إنّ القبول عند الله وعند النّاس ليس بالخيلاء ولا بالافتخار، فالله لا ينظر إلى من جرّ إزاره خيلاء، لا ينظر إلى من استكبر على عباد الله، وبحسب امرىء من الشرّ أن يستكبر على أخيه المسلم، إنّما ينظر الله إلى المتواضعين، الذين تواضعوا لله، وتواضعوا لعباده، حتى إنّ الله تعالى مدح الذلّة على المؤمنين بقوله في وصف عباده المخلصين: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

نسأل الله عزّ وجلّ أن يجعلنا من عباد الرحمن ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر: ١٨].

استغفروا ربّكم إنّه هو الغفور الرحيم، وادعوه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية:

الحمد لله ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: ٣] ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ﴿... تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ۝٢﴾ [الملك: ١ ـ ٢] .

وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله، السراج المنير، والبشير النذير، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنّته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

أمّا بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

في هذا الأسبوع حضرت المؤتمر العالميّ الثاني للدعوة الإسلامية والدعاة المسلمين في المدينة المنورّة، في رحاب حرم رسول الله ﷺ ، وبدعوة من الجامعة الإسلامية هناك، واتخذ المؤتمر توصيات هامّة كثيرة.

ومن هذه التوصيات توصية أقولها لكم الآن وهي:

نداء إلى جميع الحكومات والمؤسّسات والشركات والأفراد والمسلمين، أن يستغنوا عن العمالة الأجنبيّة بالعمالة الإسلاميّة، وأن يستخدموا المسلمين قبل غيرهم، فإنّ العمالة الأجنبيّة الوافدة قد كثرت في بلاد المسلمين، وخاصّة في بلاد الخليج.

وهذا خطر على الطابع الإسلامي لهذه البلاد، وخطر على البيوت الإسلامية أن يدخلها غير المسلمين وغير المسلمات، وبخاصّة المرّبيات والمشرفات على تربية الأبناء والبنات، وقد قال النبي ﷺ: «لا تصاحب إلاّ مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلاّ تقيّ»[1]، فالذي يدخل بيتك ويعاشرك ويصاحبك ويأكل

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه الحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، من

طعامك، ويطّلع على عوراتك، ويعرف أمورك، ينبغي أن يكون مسلماً، بل ينبغي أن يكون من أصلح المسلمين كلّما استطعنا ذلك.

فهذا النداء إلى الناس أن يتحرّوا في هذه النقطة، وأن يبادروا إلى اختيار المسلمين قبل كلّ شيء والمسلمات قبل كلّ شيء، فهذا نداء وهذه توصية أحببت أن أبلّغها إليكم لكثرة ما أرى من دخول غير المسلمين وغير العرب إلى هذه البلاد وإلى غيرها.

فليتحرّ كلّ مسلم وكلّ مسلمة يسمع هذا، وخاصّة في البيوت، والإشراف والتربية، فلا ينبغي أن نعطي أولادنا وأطفالنا لغير المسلمين ولغير المسلمات يلقّنونهم ما لا نعرف، أو ما نعرف أنّه ضدّ الدين.

النّبيّ ﷺ يقول: «**كلّ مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهوّدانه أو ينصرّانه أو يمجّسانه**»[1].

والمربية تصبح بمنزلة الأبوين، فلهذا ينبغي أن نعي هذا الخطر، وأن ندركه، وأن نحاول العمل بهذه التوصية.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يفقهنا في ديننا وأن يعلمنا ما ينفعنا وأن ينفعنا بما علمنا، إنه سميع قريب اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كلّ خير، واجعل الموت راحة لنا من كلّ شرّ.

اللّهمّ اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن

= حديث أبي سعيد الخدري رضي الله نه. (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٧٩٠، الحديث ١٨٥١).

(١) رواه أبو يعلى، والطبرانيّ في الكبير، والبيهقيّ في السنن، عن الأسود بن سريع، ورمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير (٢/ ٩٤) وانظر تعليق المناويّ عليه في الفيض (٥/ ٣٣ ـ ٣٤ برقم ٦٣٥٦).

عاقبتنا في الأمور كلّها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللّهمّ أكرمنا ولا تهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنّا وأرضنا.

اللّهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللّهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللّهمّ انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللّهمّ إنّا نجعلك فِي نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم، اللّهمّ اجمع كلمتنا عليهم.

اللّهمّ اجمع كلمة المسلمين على الهدى والتقى، والجهاد في سبيلك يا ربّ العالمين.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الحشر: ١٠].

وصلّ اللّهمّ على عبدك ورسولك محمّد، وعلى آله وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾ [الأحزاب: ٥٦].